﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ٧١﴾ [المؤمنون: 71]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ ظاهرةِ كراهيةِ الحقِّ إلى بيانِ علَّةِ ذلك

بعد أن أخبر اللّه سبحانه في الآية السّابقة أنَّ أكثرَ المشركين يكرهونَ الحقَّ، وما ذلك إلّا لأنّه يُخالف أهواءَهم ويُصادم سلوكَهم المُنحرف؛ ناسبَ أنْ يذكرَ بعدَ ذلك علّةَ عدمِ موافقة الحقِّ لأهوائِهم، جوابًا عمّا قد تثيرُه نفسُ إنسانٍ سيِّئ مُغرقٍ في هواه قائلًا: (وماذا لو جاءَهم محمّدٌ ﷺ بما يوافق أهواءَهم؟)، فعلَّل القرآن ذلك بأنَّ الحقَّ وداعية الهوى المغرضِ لا يجتمعان، وأنَّ الحقَّ لو سايرَ هواهم وخالفَ قانونه أدَّى ذلك إلى الفساد والاختلال في النّظام الكونيِّ، وفي السُّلوك الاجتماعيِّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِذِكۡرِهِمۡ﴾: (ذكر) أصلُ الذِّكْر: الحِفْظُ الّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيان[1]، وهو أيضًا: جَرْيُ الشَّيْءِ على لِسانِكَ[2]، والذِّكْر: الكتابُ الّذي فيهِ تَفْصيل الدّين، وكلُّ كتابٍ من كُتبِ الأنبياء عليهم السلام ذِكْرٌ[3]، فالذِّكْرُ الكَلامُ الموحَى بِهِ ليُتْلَى ويُكَرَّرَ، فهو للتِّلاوَةِ لأنَّهُ يُذْكَرُ ويُعادُ، إمّا لأنَّ فيه التَّذْكيرَ باللّهِ واليَومِ الآخِرِ، وإمّا بمعْنَى أنَّ به ذِكْرَهُم في الآخِرينَ[4]، والذِّكْرُ: الصَّلاةُ، وقِراءَة القُرْآن، والتَّسبيحُ، والدُّعاء، والشُّكْرُ، والطّاعَة[5]، وحقيقةُ الذِّكر في الآية:

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذكر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المُحيط في اللُّغة: (ذكر).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المُحيط في اللُّغة: (ذكر).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 16.
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ذكر).

يجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا بمعنى التَّذكيرِ، ويجوزُ أنْ يكونَ اسمًا للكلامِ الّذي يُذكِّر سامعَه بما غَفَلَ عنه وهو شأْنُ الكتبِ الرَّبّانيَّةِ[1]، ويحتمل أنَّ المُراد أتيناهم بما فيه سببُ ذِكْرهم في الآخِرين وهي رفعتُهم ومجدُهم، لكنَّهم معرضون عمّا يرفعهم ويرفعُ ذكرَهم بين العالَمين.

2) ﴿مُّعْرِضُونَ﴾: (عرض) أَصْلُ كَلِمَةِ الإعْراضِ مِنَ العَرْضِ وهوَ الظُّهورُ والبُروزُ، يُقال: عَرَضَ الشَّيْءُ وعَرِضَ يَعْرِضُ ويَعْرَضُ عَرْضًا؛ أيْ: ظَهَرَ وبَرَزَ[2]، وقيلَ أَصْلُها مِنَ العَرْضِ وهوَ: خِلافُ الطّولِ، يُقال: اعْتَرَضَ الطَّريقَ إذا سارَ عَرْضًا، وسُمّيَ الرَّفْضُ إعْراضًا؛ لِأنَّ الرّافِضَ أظْهَرَ خِلافَ الشَّيْءِ، أوْ لِأنَّهُ كالواقِفِ عَرْضًا في وجْهِ الشَّيْءِ[3]، والإعراض أيضًا: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ، تَقولُ: أعْرَضَ عَنْهُ؛ أيْ: صَدَّ وتَوَلَّى عنهُ، والمُعْرِضُ: المُتَوَلّي، ويُطْلَقُ الإعْراضُ بِمَعْنَى: الانْصِرافِ عَنِ الشَّيْءِ بِالقَلْبِ، وضِدُّ الإعْراضِ: الإقْبالُ والانْقيادُ والطّاعَةُ[4]، والمقصود بالإعراضِ في الآية: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ، وضِدُّ الإقْبالِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحقُّ أعلى من الشَّهواتِ والشُّبهاتِ

تُبيِّن الآيةُ افتراضًا وهو أنَّ اللّه تعالى لو أجابَ هؤلاءِ المشركينَ إلى ما يَهوونه ويَشتهونه من باطلٍ وقبيحٍ، لفَسَدتِ السّماوات والأرضُ ومَن فيهنَّ مِنَ المَخلوقاتِ، واختَلَّ نِظامُ العالَمِ، ولذلك أعرضَ عن أهوائهم، وما تُمليه رغباتُهم الفاسدة الضّيقة وعقولُهم المحدودةُ المُنحرفة، وأتى أولئك المُشركينَ بالقُرآنِ المُبَيِّنِ للحَقِّ، الّذي فيه شَرَفُهم وعِزُّهم في دُنياهم وأُخراهم؛ فهُمْ عن القُرآنِ مُعرِضونَ لا يَتَّبِعونَه![5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 95.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عرض).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عرض).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 89، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 141، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 555، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 52.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

الاستئنافُ أوِ العطفُ مفيدٌ تعليلَ كراهتِهم الحقَّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ يحتملُ أنْ تكون للاستئنافِ، أوْ تكونَ للعطف، حيث عطفت جملة: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ﴾ على جملة: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ زيادةً في التّشنيع على أهوائهم، فإنّها مُفضيةٌ إلى فساد العالم ومَنْ فيه، وكفى بذلك فظاعةً وشناعةً[1]، ودلّت الجملةُ المعطوفة أوِ المُستأنفة على أنَّ كراهيتهم للآيات نابعةٌ من كونها مخالفةً لأهوائهم ورغباتهم الخاطئة، ولو كانت الآياتُ مُتفقةً مع ميولهم اتّبعوها وساروا في ظِلِّها، وحينئذٍ تقعُ الكارثة، وتخرُبُ القيمُ الأخلاقيّة الحقّة، وتسودُ شريعةُ الغاب ويحلّ الظّلم ويشيعُ الانحلال، وهي عوامل خرابِ العالم وشيوعِ فساده وزوالِ انتظامه.

دلالةُ (لو) الشَّرطيّة:

يستحيلُ اتّباعُ الحقِّ أهواءَ الذين يُشركون

(لو) حرف شرطٍ غير جازمٍ يدلُّ على امتناع وقوع الجزاء لامتناع وقوع الشّرط، فهو حرف امتناعٍ لامتناع، وامتناع اتِّباع الحقِّ لأهواء المشركين، منعَ من وقوع فسادٍ في الكون؛ فالعلاقةُ بينهما علاقةُ سببيّة يترتّبُ فيها الجواب على الشَّرط؛ كقولنا: (لو جاءني أكرمته) فإنَّ المجيء علّةٌ للإكرام وسببٌ له، لكنّه لم يجئ أصلاً فلم أكرمْه، وفي استعمال هذه الأداة دليلُ استحالةِ وقوعِ مثل هذا الأمر إلّا إنْ ارادَ اللّه تعالى إفسادَه نظامَ العالم بالقيامة على أشرار الخلْق، فإنَّ الحقَّ لن يتبعَ أهواءهم، وفيه طمأنةٌ للمؤمنين، وإياسٌ لأصحاب الشَّهوات والأهواء.

بلاغةُ الاستعارة التّصريحيَّة أوِ المكنيَّة:

اتّباعُ الحقِّ الأهواءَ بالموافقةِ تشخيصٌ له بالعقلاءِ

الاتِّباع هو من قولهم: اتَّبعهُ بالتَّشديد بمَعْنى: سارَ خَلفَه[2]، والمعنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 91.
(2) الجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 35.

على ذلك: ولو سارَ الحقُّ خلفَ أهوائهم فكان مُنقادًا لها اختلّ الميزان؛ لأنَّ مِن شأن الحقِّ أن يكونَ قائدًا لا تابعًا، وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعَ﴾ مُستعارٌ للدّلالة على معنى الموافقة، والاستعارة قائمة على تشبيه الموافقة بالاتّباع على سبيل الاستعارة التّصريحيَّة التبعيَّة؛ أيْ: لو وافقَ الأمرُ المطابقُ للواقع أهواءَهم بأنْ كان الشِّرك حقًّا ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[1]، ومثلُه قولُ النّبيِّ ﷺ: «لَنْ يَسْتَكْمِلَ مُؤْمِنٌ إيمانَهُ حتّى يَكونَ هَواهُ تَبَعًا لِما جِئْتُكُمْ بِهِ»[2]، ويحتمل المجاز الاستعاريّ أن يكون الحقُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ على معنى الحقّ المُتقدّم في قوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، وهو الشّيءُ الموافقُ للوجود الواقعيّ وحقائقِ الأشياء[3]، والمعنى: ولو وافق هذا الحقِّ الثّابت أهواءهم ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ فيكون قد شبَّه الحقَّ بإنسانٍ يُمكنُه اتّباعُ غيره ومشيُه خلفَه، وذَكَرَ لازمًا من لوازمه وهو الاتِّباع على سبيل الاستعارة المَكنيَّة، أوْ أنْ يُحملَ الكلام على المجاز الحذفيّ؛ أيْ: ولو اتّبع صاحبُ الحقِّ وهو النّبيُّ ﷺ[4]، ويترجّحُ كلٌّ من الاستعارتيْن على المجاز الحذفيِّ لما فيهما من معنى التّشبيهِ المُستلزم للمبالغة والتّشخيص.

نوع أل في لفظ ﴿ٱلْحَقُّ﴾:

العهد أو الجنس دالٌّ على انحصار الحقِّ في الآياتِ البيّنات

(أل) في كلمة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ قد تُحمل على الجنس لو أُريد بالحقِّ الأمرُ المُطابق للواقع، وتُحمل على العهد، لو أُريد به معهود معيَّن على ما مرَّ في الاحتمالات المجازية لكلمة ﴿ٱلْحَقُّ﴾، وفي تسمية الآيات حقًّا على العهد أو الجنس إشارةٌ إلى أنَّ الحقَّ مُنحصرٌ في اتّباع تلك الآيات البيِّنات والبراهينِ السّاطعات.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 252.
(2) أخرجه البيهقيّ في المدخل إلى السُّنن الكبرى، باب ما يُذكر من ذمِّ الرأي، ص: 188.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 92.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 204، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 340، وفيود، التّفسير البلاغيّ لسورة "المؤمنون"، ص: 107.

سرُّ الجمعِ والإضافةِ إلى الجمعِ:

يستحيلُ أن يتّبعَ الحقُّ الواحدُ الباطلَ المُتعدِّد

جمع ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ للإشعار بأنّهم مُتعدّدو الهوى، فليس لهم هوًى واحدٌ بل أهواءٌ كثيرة، فطُرقُ الباطل كثيرةٌ ومتنوّعةٌ، وطريق الحقِّ واحدٌ، كما أنَّه جمعَ الضَّمير المُضاف إليه للإشعار بكثرة أصحاب الهوى، فهم كُثُرٌ وأهواؤهم أيضًا كثيرةٌ، وهذا يدلُّ على أنّ الحقَّ مُحالٌ أنْ يتّبعَ أهواءَهم لعدم إمكانيَّة ذلك، لا في الواقع ولا في الوهم، فكيف لواحدٍ أنْ يتّبعَ مُتعدّدًا بحيثُ يُلبّي رغباتِ أصحاب الهوى المُتكثِّر؟!

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ الفسادِ:

إذا نزلَ الفسادُ ارتفعَ الصَّلاحُ وعمَّتِ الخيبة

جاءتِ (اللّام) رابطةً لجواب الشّرطِ، وجملة: ﴿لَفَسَدَتِ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، جوابُ شرطٍ غيرِ جازم، ودلَّت كلمة الفساد في قوله تعالى: ﴿لَفَسَدَتِ﴾ على معنى: خروجِ الشّيءِ عن حدّ الاعتدال، وهي مضادّةٌ لكلمة (الصّلاح) في عموم استعمالاتها، وهي تستعملُ في النّفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة[1]، ومعنى ذلك: أنَّ الحقَّ لو اتّبع أهواءهم لفسد كلُّ شيء من كلِّ جهة، ولما بقي فيه وجهٌ للصَّلاح، وعبَّر بالماضي في قوله: ﴿لَفَسَدَتِ﴾ للدّلالة على تحقُّق وقوع الفساد لو وقعَ الشّرطُ، ولكنَّ الشّرط غيرُ واقع؛ فالفسادُ غيرُ حاصلٍ، وهذا قياسٌ استثنائيٌّ مفيدٌ لامتناع وقوع الفساد بامتناع وقوع الشَّرط على طريقة اللُّغويّين.

نوعُ الواو ودلالتها:

العطف يفيدُ شمولَ الفساد للمكان ومَن فيه

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ للعطفِ، ودلالتُها بيانُ عِظَم هذا الفساد، وشمولِه للمكان؛ وهو السَّماوات والأرضُ، ومَن يسكُن فيهنَّ، فالفساد الّذي ينشأ عن اتِّباع الحقِّ للهوى يعمُّ كلَّ شيءٍ؛ لأنّ الأهواء متعدّدةٌ؛ فأحدهم يريدُ ما يناقضُ الآخر، فلو نزلَ

(1) الرّاغب، المُفردات: (فسد).

الحق الّذي يُنظّم أمر العالَم على مقتضى أهوائهم أدَّى إلى زوال السَّماوات والأرض، واختلالِ النّظام الّذي يُنظّم أحوالَ مَن فيهنّ من الخلائق والكائنات، وهذا يدلُّ على أنّ الموجودات كلَّها قائمةٌ على نظامٍ متينٍ ونواميسَ كونيَّةٍ ضابطةٍ، فلو استجابَ الحقُّ لتلك الأهواء تبدّل النِّظام وزالتِ الأمكنةُ ومَن فيها.

نوع (من) ومعناها:

فسادُ العقلاءِ يعمُّ غيرَهم ويُصيبُ شرُّه عمومَ الخلقِ

(مَنْ) اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العاقل، ليُعلم أنَّ العقلاء من سُكّان السَّماوات والأرض، كالملائكة في السَّماء، والإنس والجنّ في الأرض، كلُّهم مُنذَرون بالفساد، لو اتَّبعَ الحقُّ أهواءَ المشركين أعداءِ الحق، وإذا خصَّ العُقلاء بالذِّكر من خلال (مَنْ) الموصولة؛ فإنَّ غيرَ العُقلاء أدخلُ في باب الفساد من باب أوْلى؛ لأنَّ لهم حُكم التَّبع في هذا، ويحتمل أن تكون (من) هنا للتّغليبِ فتشملَ العاقل وغيرَه.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيةِ:

دلَّت الظَّرفيَّةُ على استقرارِ أهلِ السّماواتِ والأرضِ؛ فإذا كثرَ الفسادُ أفَلَ الصَّلاحُ

(في) حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وسرُّ التَّعبير به في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّۚ﴾ الدّلالة على أنَّ جميع مَن تحويهم السّماواتُ والأرض مِن العقلاء، وغيرِهم من باب أوْلى غيرُ ناجين من الوقوع في الفساد ما لو اتّبع الحقُّ أهواءهم، ولبيان استقرارِ سُكّان السَّماوات والأرض فيهنَّ، فلا يكون هذا الاستقرار إلّا بالصَّلاح واتِّباع الحقِّ الثابت، فإذا زال الصَّلاح وقعَ الفساد وذهب الاستقرار، وحينئذٍ لن يكون هناك استقرارٌ فيهنَّ، ففي الآية تنبيهٌ لأهل الباطل والإلحاد أنْ لا يَعبثوا في شأن السَّماوات والأرض، فإنَّ النتيجةَ فسادٌ عامٌّ وشرٌّ طامٌّ.

نوع ﴿بَلْ﴾ ومعناها:

(بل) للإضرابِ الانتقاليّ أو الإبطاليّ

﴿بَلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ يحتملُ أن تكون للإضراب الانتقاليِّ، بأنْ يكونَ قد انتقل من تشنيعهم بكراهة الحقِّ الّذي به يقومُ العالم إلى تشنيعِهم بالإعراض عمّا جُبلت عليه

كلُّ نفس من الرَّغبة فيما فيه خيرُها[1]، ويحتملُ أنْ تكون ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطاليِّ أيضًا بأنْ يكونَ قد أبطلَ توهُّمَهم أنَّ الحقَّ يُساير أهواءهم، وأثبتَ أنَّه قد أتاهم بما يُذكِّرُهم الحقَّ، ويُبعدُهم عن أهوائهم[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإتيانِ دونَ المجيءِ:

استعمل النَّظمُ الكريمُ لفظَ الإتيانِ دونَ المجيء في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ لما أنَّ "جاء" يُقال في الجواهر والأعيان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ [يوسف: 72]، و(أتى) يُقال في المعاني والأزمان، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: 1][3]، كما أنّ المجيء يكون للانتقال الّذي فيه صعوبةٌ، بخلاف الإتيان الدّالِّ على الانتقال والحركة السَّهلة اليسيرة، وفي هذا التَّعبير ما يدلُّ على سهولة الإتيان بالحقِّ والتّذكير، والمُراد بالذّكر هنا القرآنُ على الأظهر في معناه؛ لأنّه يقوم بتذكيرهم بما يُنجيهم وينفعُهم، كما قال فيه ربُّنا ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزُّخرف: 44].

القرآنُ حياةٌ للقلوبِ ونجاةٌ لأصحابِها

نكتةُ إسنادِ الفعلِ الماضي إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

أُسند فعل الإتيان إلى ضمير العَظَمَة ﴿أَتَيْنَٰهُم﴾ للدّلالة على عَظَمَة المأتيِّ وهو القرآنُ الكريم وتفخيم شأنه، وعبّر بالماضي ﴿أَتَيْنَٰهُم﴾ لتحقُّقه ووقوعِه، فقد آتاهم اللّه تعالى القرآن وفيه منهاجُ حياتهم، ومعه الرّسول ﷺ يُذكّرُهم به ويدعوهم إليه.

القرآنُ عظيمٌ بعَظَمَةِ مُنزله

نوع الباء في ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾ ومعناها:

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾ للسببيَّة؛ أيْ: أتيناهم بسبب تذكيرهم ونجاتهم وهو القرآنُ الكريم، أو أنَّ المُراد ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾

السّببيّةُ تدلُّ على أنَّ القرآن مُذكِّرٌ لهم أوْ رافعٌ لمكانتهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 144، والصّاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين: 3/ 114.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5096.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 365.

ارتفاعُ شأنهم وعُلوُّ أمرهم، فيكون المُراد: أتيناهم بالقرآن الّذي هو سببُ عِزِّهم ومجدِهم في قابل الأيّام إنْ هم آمنوا به، وعمِلوا بأحكامه وطبَّقوا إرشاداته.

بلاغةُ اختيارِ مُفرَدَةِ الذِّكْر:

جمعُ لفظِ الذِّكْر بين المعنى الرّوحيّ والحضاريّ

المُراد بالذِّكْر في قوله ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾ هو القرآن الكريم، وفي تسميته بذلك دلالةٌ على شرفِه، فالشّرف ذِكْرٌ كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزّخرف: 44]؛ أيْ: شرفٌ لك ولهم؛ لأنَّه نزل بلغتهم[1] كما أنّه ذِكْرٌ لما فيه من أسباب التّذكير بما فيه صلاحُ الحال والمآل؛ فجمعتِ المُفرَدَة بين المعنى الرّوحيِّ الذّاتيِّ، الّذي فيه صلاحُ العباد والبلاد؛ والمعنى الحضاريِّ العامِّ الّذي فيه صلاحُ الأمّة والبشريَّة وعزُّها.

دلالةُ إضافةِ الذِّكْر إلى الضَّمير:

ما أغفلَ من ضلَّ عن واعِظِهِ الّذي بينَ يديه

أُضيفَ الذِّكْرُ إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله؛ أيْ: جئناهم بما يُذكِّرُهم، ويُنبِّههم إلى خللِ تفكيرهم وبُعدهم عن الحقّ وسيطرةِ أهوائهم[2]، وقيل: إضافة الذِّكْر إلى ضمير (هم) من إضافة المصدر إلى فاعله؛ أيْ: الذّكر الّذي سألوه حينَ كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الصّافّات: 168 - 169]؛ أيْ: ما يتذكّرون به[3].

نوعُ الفاءِ ومعناها:

مُنتكسُ الفِطرة يرى الحقَّ باطِلًا

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ﴾ للتّفريع؛ أيْ: لتفريعِ إعراضِهم على الإتيان بالذِّكْر إليهم؛ أيْ: فتفرَّع على الإرسال إليهم بالذِّكْر إعراضُهم عنه[4]، وفي ذلك توبيخٌ لهم، حيث جعل إتيانَ الذِّكْر سببًا

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 183.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5096.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 95.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 95.

للإعراض مع أنّه عندَ العقلاء سببٌ لقبوله والتّوجُّه إليه[1]، وفي الفاء التّفريعيّة نلمحُ معنى المسارعة إلى الإعراض حتّى إنّهم لم يَمنحوا أنفسهم فرصةَ سماعِ الذّكْر أوِ التّدبُّر في فوائد الإنصات له كعلوِّ أمرهم وقيام مجدهم.

بلاغةُ استعمالِ الضَّميرِ دون الأكثريّةِ:

جاء التَّعبير في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ بالجملة الاسميّة، ولم يذكر الأكثريَّة كما ذَكَرها في الآية السّابقة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾، فلم يَقُلْ: (فأكثرُهم عن ذِكْرهم مُعرضون) كما احترسَ في السّابقة، وذلك للدّلالة على أنَّ الإعراض عن القرآن كان من جميعهم، بينما لم يكونوا جميعًا كارهين للحقِّ، ففيه بيانُ أنَّ الإنسان يوصفُ بالإعراض ولو لم يكن مُحبًّا له لم يفعله، فبعضُ المشركين لم يكرهِ الحقَّ، لكنَّه اتّبع الباطل، فوُصِف بالإعراض، فالعبرةُ بالفعل لا ما تُكِنُّه القلوب دون أثرٍ يُذكَر.

عـدمُ كـراهـيـةِ الحقِّ مع اتّباعِ الباطلِ إعراضٌ يُحاسبُ عليه فاعلُهُ

معنى حرف ﴿عَن﴾:

﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم﴾ دالٌّ على المجاوزة؛ أيْ: تجاوزوا ما فيه ذِكْرُهم وأعرضوا عنه، أوْ: أعرضوا عنه مُتجاوزين إيّاه.

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

آثرَ النظمُ الكريم وضعَ المُظهَر ﴿ذِكْرِهِم﴾ موضعَ المُضمَر، فقد كان مقتضى الظّاهر أنْ يُعبَّر عنه بالضَّمير لقُرب ذِكْره؛ فلم يَقُلْ: (فهم عنهُ معرضون)؛ بل أظهره لمزيد التّشنيع عليهم والتّقريع لهم[2]، إذ تصوَّروا واهمين أنَّ إعراضهم عن الآيات صوابٌ وتحقيق للذّات وترفُّعٌ ومَجدٌ مع أنّه إعراضٌ في الحقيقة عمّا هو نافعٌ لهم رافعٌ لمقامهم ذاكرٌ لهم بكلِّ خيرٍ إنِ اتَّبعوه وآمنوا به.

في الـعـدولِ كمالُ التّشنيعِ والـتّـقـريـعِ لـسـلـوكـهـم وإعراضِهم

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 205.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 144.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المُسنَدِ:

التّقديمُ للاهتمامِ أوِ الاختصاصِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾ على المُسنَد ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ لإفادة الاختصاص والقصر، فهم قد أعرضوا عن القرآن لا عن غيره، وكان أَوْلى بهم أن يُعرضوا عن شركِهم ويَؤوبوا إليه، أوْ أنَّه للاهتمام بـ ﴿ذِكْرِهِم﴾ ليكونَ إعراضُهم عنه محلَّ عجَبٍ[1].

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ الإعراضِ:

المُكذِّب بالحقِّ شبيهٌ بالمُعرِضِ عن الشَّيءِ بحيث لا يلتفت إليه

حقيقةُ الإعراض: عدمُ الالتفات إلى الشّيءِ بقصد التباعُد عنه مشتقٌّ من العُرض - بضمّ العين - وهو الجانبُ، ثم استُعمل استعمالًا شائعًا في التَّركِ والإمساك عن المخالطة والمحادثة؛ لأنّه يتضمّنُ الإعراض غالبًا، يُقال: أعرضَ عنه كما يُقال: صدَّ عنه[2]، والإعراض في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ كنايةٌ عن تكذيبهم القرآن والإيمان، رغمَ ما فيهما من نفعٍ لهم، أو هو مجازٌ عنه، حيث شبَّه المُكذِّبَ بالحقّ بالمُعرِض عن الشّيء فلا يلتفتُ إليه؛ بجامع النّفور من الشّيء، ويمكنُ حملُه على المجاز المرسَل بعلاقة اللُّزوم، حيث أطلقَ الإعراض وأرادَ التّكذيب، وهي توجيهاتٌ بيانيّةٌ تلتقي في المقصود من المعنى.

نكتة التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿مُّعْرِضُونَ﴾:

المشركون ثابتونَ على الباطلِ مستمرّون في الإعراضِ

عبَّر النَّظمُ الكريم عن إعراضهم باسم الفاعل ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ دون الفعل المضارع، فلم يَقُلْ (يعرضون) للدّلالة على تأصُّل الإعراض فيهم، وأنّهم لثباتهم عليه صارَ فيهم كالطّبع والسّجيَّة، بحيث لا يتخلَّف عنهم، ولا يتخلَّون عنه، فهم ما بين الثّبات عليه، والاستمرار في ضلالِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهوى والشَّهوة:

فُرِّق ما بين الهوى والشّهوة مع اجتماعهما في العلَّة والمعلول،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 95.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/ 108.

يغلب الهوى في المعنويات، والشّهوة في اللّذّات الحسّيّة

واتفاقهما في الدّلالة والمدلول، هو أنَّ الهوى مختصٌ بالآراء والاعتقادات، والشّهوةَ مختصّةٌ بنيل اللّذّة، فصارت الشّهوة من نتائج الهوى ولوازمه، وهو أعمّ، والهوى أصلٌ هو أخصّ[1]، فكلُّ هوًى شهوةٌ، وليس كلُّ شهوةٍ هوىً، فمثلًا قد يَشْتَهي الإنْسان الطَّعام ولا يهواه[2]، أو يشتهي امرأةً ولا يهواها، فالشّهوة من آثار الحِسِّ، فلا يُشتهى إلّا ما يُدرَك بالحسّ، ومنه قيل: شهْوتا البطن والفَرْج، وأمّا الهوى، فهو ميلٌ نفسيٌّ أوِ اعتقادٌ قلبيٌّ وزيغٌ عقليٌّ يُردي صاحبه ويهوي به، قال الرّاغب: سُمّي - الهوى - بذلك؛ لأنّه يَهْوي بصاحبه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويَةِ[3].

(1) الماورديّ، أدب الدّين والدُّنيا، ص: 33.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 124.
(3) الرّاغب، المُفردات: (هوى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»